ابن العالم سيدي محمد الزجلوي
(حياته وإسهامه في الحركة العلمية بتوات)

أ.عبد القادر بقادر
جامعة قاصدي مرباح ورقلة

الملخص:

في ظروف طبيعية قاسية وأحوال معيشية صعبة عاش (ابن العَالِم) أبو عبد الله محمد ابن أمحمد الزجلوي. ولد في قصر زاجلو إحدى قصور زاوية كنتة، قبيل منتصف القرن الثاني عشر الهجري، كان أبوه عالما شهيرا، فتلقى عنه المبادئ الأولى للعلوم، ثم انتقل إلى تينيلان ليتعمق في شتى العلوم الشرعية واللغوية، فكان له ذلك، فأصبح لغويا فقيها وشاعرا فحلا، فألف الكتب وشرح المنظومات الفقهية، كل هذا في عصر ادلهمت فيه الخطوب وعظم البلاء؛ حيث كثر الجهل وعمت الفتنة.

Résumé:

C'est dans de rudes conditions naturelles de vie bien difficiles qu'a vécut Ibn El âlim Abou Abdallah Mohammed ben M'hammed Ezzedjlaoui.

Il est né au k'sar Zadjlou, l'un des innombrables k'sours de Zaouiet Kounta actuellement, vers le milieu du XII^{e} siècle.

De son père qui fut un grand sage, il a reçut les premiers enseignements de la langue arabe ainsi que les préceptes de la religion musulmane.

Par la suite, il s'est déplacé à Tinillane, pour approfondir ses connaissances de la Chariâ et de la langue arabe et devint ainsi un grammairien reconnu de la langue arabe, un grand exégète (f'qih), ainsi que poète. Il a écrit de nombreux ouvrages dans lesquels, il interprète les textes de l'exégèse en cours de l'époque.

التمهيد:

إن أرض الجزائر ما فتئت تنجب رجالا حملوا مشعل الثقافة والعلوم على مر العصور، وإقليم توات جزء لا يتجزأ من هذه الأرض المعطاءة، فهذا الإقليم المترامي الأطراف الغائص في الصحراء الكبرى ذات الحرارة المفرطة والكثبان الرملية، والأرض المسبّخة القليلة الزراعة والأشجار، اكتسب سكانها جلافة الصحراء وقساوتها، كان له رجاله الذين تعايشوا مع هذه البيئة،

وأسهموا بنصيب وافر في تقدم الثقافة الجزائرية والعربية الإسلامية، وإذا أردنا سرد رجالها فإن القائمة ستطول، وفي هذا المقال سوف أسلط الضوء على أحد هؤلاء الرجال الذين قاوموا الطبيعة والظروف؛ فألف وأبدع حتى كتب اسمه بأحرف من ذهب؛ إنه ابن العالم محمد الزجلوي.

أولا: بيئة ابن العالم التواتية:

1 ـ الحياة السياسية والاجتماعية:

عاش ابن العالم ما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، وعُرف هذا العصر بعصر القضاة لأن الإقليم كان تحت حكم القاضي الذي كان له الحكم التشريعي المنبثق من تعاليم الشريعة الإسلامية، بينما كان الحكم التنفيذي لشيوخ القبائل في الإقليم بأكمله، ويبدأ هذا العصر من وفاة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ت(909هـ)، إلى دخول الاستعمار الفرنسي إلى الإقليم سنة 1317هـ . 1900م. كما يُعرف هذا العصر بعصر التناقضات! فكيف ذلك؟

إن المتتبع للحياة العامة في هذا العصر يجدها فعلا تفتزُّ له عن متناقضات كثيرة؛ فقد اجتمع الفقر والغنى، والعلم والجهل، والسلم والحرب، في زمكان واحد، وسنحاول فتح نافذة على الجوانب العامة للحياة آنذاك ليتضح الأمر ويتجلى.

كان الحكم في الإقليم بيد القضاة وشيوخ القبائل؛ فالقاضي هو صاحب القرار ولا أحد يرد حكمَه، ويساعده في التنفيذ رؤساء القبائل، كما عَرف هذا العصر فتنة (يحمد وسفيان)[1] التي زاد من تسعير نارها حكام المغرب الأقصى مخافة اتحاد القبائل وتشكيل إمارة على غرار ما كان ينوي محمد بن عبد الكريم المغيلي فعله. وعلى الرغم من هذه الفتنة التي كادت تقسم ظهر التواتيين إلا أن مظاهر التآلف والتكافل الاجتماعي الموروث عن الدين الإسلامي كان بارزا على المجتمع التواتي من كرم الضيافة وتبادل

1 ـ نسبة إلى الحرب التي كانت قائمة بين أبي سفيان قبل إسلامه ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. والحمد لله أن هذه الفتنة لم تمس إلا أهل توات فيما بينهم ولم تتعد إلى ضيوفها وزائريها.

الزيارات...[1]، والفضل في ذلك يرجع إلى العلماء والصالحين الذين كان لهم حضور قوي في كل مناسبة.

2 ـ الحياة الاقتصادية:

على الرغم من تموقع الإقليم بالصحراء الكبرى حيث الجفاف وقساوة الطبيعة، فقد قامت الحياة الاقتصادية في الإقليم على ثلاثة أنشطة هي: التجارة، والزراعة، والصناعة، ولا تكاد الحياة الاقتصادية في أي مكان في العالم تقوم إلا على هذه الأنشطة.

فمما لا يختلف فيه اثنان أن المجتمعات تحتاج إلى تبادل تجاري داخلي وخارجي؛ فالداخلي يكون بين الأهالي والتجار المحليين؛ ويتم بأشكال مختلفة منها تبادل السلع مثل التمر بالزيت والسمن واللحم واللباس، أو استبدال الصوف بغيرها...، أما الخارجي فهو يعتمد على القوافل القادمة من المغرب والسودان بغرض استبدال سلعتها بالسلع المحلية التي بحوزة التجار المحليين، يقول العياشي: "وهذه البلدة [تسابيت] هي مجمع القوافل الآتية من بلاد تنبكت ومن بلاد اقرن ومن أطراف السودان، ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تجلب من هناك شيء كثير، والسلع التي تجلب من المغرب مما هو خارج السودان نافقة في هذه البلاد كالخيل وملابس الملف والحرير، فإذا قدم الركب إليها كان فيها سوق حافل."[2].

ولقد كانت هذه الأسواق الداخلية المنتشرة في القصور والمدن التواتية القلبَ النابضَ للنشاط التجاري، ويصف العياشي سوق منطقة تسابيت فيقول: "وأقمنا بها ستة أيام وبِعنا بها خيلنا وما ضعف من إبلنا واشترينا ما يحتاج إليه من التمر، وبها من التمر أنواع كثيرة، ووجدنا التمر فيها رخيصا...وغالب أهلها عوام أهل تجارة جل عيشهم التمر."[3]، ولم تكن هذه الحال في سوق تسابيت وحدها بل كانت كل أسواق الإقليم على تلك الحالة[4].

---

1 ـ ينظر: النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9 إلى القرن 14 الهجري، عبد الحميد بكري، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، د ط، 2003م، ص:22 ـ 26، وإقليم توات بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الملاديين، فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1977م، ص: 32 ـ 38.

2 ـ الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، مولاي بالحميسي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 1979م، ص: 70.

3 ـ الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ص: 69.

4 ـ ينظر: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، 63 ـ 68.

أما الزراعة فعلى الرغم من صعوبة الزراعة في المناطق الصحراوية ذات الرمال الكثيفة، يقول الشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي: "توات أرض ذات سباخ، كثيرة الرمال والرياح، لا تحيط بها جبال ولا أشجار، شديدة الحرارة المفرطة، لا ينبت فيها إلا النخيل وبعض الأشجار القليلة لفرط حرارتها، وأهلها يستخرجون الماء من بطن الأرض بالفقاقير بواسطة الآبار بكيفية عجيبة، ويقسمونه على الحقول بكيفية أعجب(*) من ذلك"[1] إلا أن سكان توات كانت الزراعة هي موردهم الاقتصادي الرئيسي؛ فقد وجد الأهالي في مجاري الأودية القديمة أو قربها المكان المناسب لغرس النخيل وبقية المنتوجات الفلاحية، ففي تلك المناطق تتشكل البساتين والحدائق وواحات النخيل، كما أوجدوا طريقة بديعة لجلب المياه من المناطق المرتفعة وتمثلت في نظام الفقاقير، ويعود تاريخ الفقاقير في توات إلى عهد الفراعنة[2] وطريقة توزيع مياهها كانت دقيقة وعادلة وبديعة، وبفضل مياه هذه الفقاقير يقوم السكان بزراعة النخيل وتحت ظلالها يزرعون الحبوب بشتى أنواعها والخضروات والفواكه والحنة...، والمراعي بالإقليم قليلة إن لم نقل منعدمة وذلك يرجع إلى وجوده في الصحراء، ولهذا فأهالي توات يعتمدون على شراء اللحوم المجففة التي تجلب من السودان والمغرب.

ومن الناحية الصناعية فإن افتقار الإقليم إلى المواد الأولية للصناعة المتطورة في تلك العصور جعل سكان توات يعتمدون على القوافل القادمة من الشمال في اتجاه السودان والتي كانت تجلب معها بعض المواد الأولية كالصوف والجلود والقطن والحديد... مما جعل بعض الصناعات المحلية واليدوية تنتشر في ربوع الإقليم؛ فصنعوا الجلود والملابس وبعض الأدوات الحديدية كالسكاكين والسيوف وغيرها، كما اعتمدوا على المواد الأولية المحلية المتوفرة في افقليم ألا وهي مادة الطين(الفخار)؛ فصنعوا منها مختلف أمتعة المنازل من أواني لحفظ المياه وأواني الطبخ والأكل، وكذلك

---

* ـ الفقاقير: هي مجموعة آبار متصلة ببعضها البعض بواسطة قنوات تحت الأرض، وتبدأ الفقارة من مكان مرتفع حتى تصل إلى مكان منخفض، فتظهر المياه على وجه الأرض لتجد في نهايتها حوضا يعرف بالقصرية، ومنه يتم توزيع المياه على الملاك (الفلاحين) كل على حسب حصته شراء أو عملا في الفقارة، ومن القصرية يشق كل مالك نصيبه في قنوات إلى بستانه حيث تتجمع المياه في حوض كبير يعرف بالماجل ومنه تسقى المزروعات.

1 ـ نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، مولاي أحمد الطاهري الإدريسي الحسيني، تح: مولاي عبد الله الطاهري، مخطوط، نسخة منه تحت يدي، ص: 24.

2 ـ ينظر: النبذة في تاريخ توات وأعلامها...، ص: 40 و41.

اعتمدوا في الصناعة اليدوية على النخيل فاستغلوا منها كلَّ شيء فيها (جريدَها، وليفها، وجذعها، وكرنافها...) فصنعوا منها الحِبال والأبواب والأقفال والسلل وبعض الأواني المنزلية، وهكذا استطاع الرجل التواتي أن يستغل كل ما منحه الله إياه في الطبيعة لتبسيط الحياة في هذه الأقاليم الصحراوية الصعبة المراس، كانت هذه الصناعات التقليدية اليدوية تنتشر بين البسطاء من الناس وطبقة العمال والعبيد.

3 ـ الحياة الثقافية والعلمية:

إن الوضع الثقافي في الإقليم عرف انتعاشا منذ دخول العرب والدين الإسلامي إلى هذه الربوع حيث حمل معه حركة ثقافية واسعة؛ فراح الناس يقبلون على تلقي العلم والمعرفة من أفواه العلماء في مختلف العلوم الشرعية واللغوية والعقلية في مختلف المدارس والزوايا، ومع تقدم العصور كان القرن الثاني عشر (18م) وبداية القرن الثالث عشر عصرا ذهبيا في تاريخ الإقليم[1]، والسبب في ذلك يرجع إلى وجود عدد كبير من العلماء؛ فقد عكف الكثير من مشايخ توات المشهود لهم بالكفاءة على دراسة آداب اللغة العربية وأصول الدين، إلى جانب اشتغالهم بالتدريس في المساجد والزوايا وغيرها من مؤسسات التعليم التي كانت منتشرة داخل توات، وهكذا لم يخلُ قصر أو مدينة تواتية من مدرسة قرآنية أو زاوية، فنشطت الحركة العملية والفقهية واللغوية فازدانت البلاد بالزوايا والمراكز العلمية التي انتشرت بربوعها، فكانت مقصدا للعلماء والزهاد والصالحين.[2] وبذلك صارت توات مركز إشعاع علمي وإسلامي ليس في الجزائر فحسب بل حتى في إفريقيا. وازداد التواصل العلمي والمعرفي وتوسع وتكثّفت معه أشكال التفاعل الحضاري ومن ثمّ انكبت النفوس على الدرس، وراحت الأقلام تترجم الأحاسيس والمشاعر وتعبر في دهشة وإعجاب عن واقع هذا التفاعل، ومن ثمّ كان لنا هذا العمر الزاخر بالشعراء والأدباء في مختلف الفنون الأدبية، والمؤلفين في شتى المجالات العلمية والمعرفية وكان ذلك كله في خدمة

[1] ـ محمد بن أب المزمري 1160هـ حياته وآثاره، أحمد أبالصافي جعفري، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط: 1،1425هـ ـ 2004م، ص:32.

2 ـ ينظر النبذة...،ص:18.

القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[1]، وتعليمهما لأهل الإقليم وغيرهم من طلاب العلم والمعرفة.

ما كان ليكون هذا العطاء المتواصل، وتلك الحركة الثقافية والعلمية في مختلف الفنون والعلوم لولا:

1 . توافد عدد كبير من العلماء والصالحين إليها من كافة الأقطار والجهات؛ من المغرب والمشرق وغيرهما فأسهموا في نهضة البلاد وبث روح الثقافة فيها[2].

2 . توفر الأمن والاطمئنان في الإقليم عبر العصور بنسب متفاوتة.

3 . الإقليم لم يخضع للسلطة العثمانية كما خضعت لها معظم البلاد الإسلامية.

4 . الموقع الاستراتجي الهام حيث كان الإقليم طريقا للقوافل مما سمح بتبادل الأفكار، وتوفر وسائل العلم من صمغ وورق...

5 . عكف الكثير من مشايخ توات المشهود لهم بالكفاءة على دراسة آداب اللغة العربية وأصول الدين[3].

6 . خصال الرجل التواتي وحبه للعلم وتطلعه للمعرفة وإيمانه بأن العلم أفضل سلاح لمواجهة الحياة والأعداء.

7 . تنقل علماء توات إلى مختلف الحواضر الإسلامية (فاس، وسجلماسة، وشنقيط، ومصر، وتونس، والحجاز...) بحثا عن العلم ومجالسة العلماء والأخذ عنهم.

8 . تأسيس الزوايا والمدارس العلمية التي كان لها الفضل الكبير في نشر العلم والثقافة بالإقليم.

ومن الزوايا التي ذاع صيتها في توات وكان لها الفضل في تخريج العلماء، زاوية سيدي علي بن حنيني ت: (1118هـ) بزاجلو هذه الزاوية التي تأسست في القرن الحادي عشر الهجري، والتي ظهر فيها العديد من العلماء، ذَكَر أمحمد الزجلوي[4] بعضا منهم في قصيدة من ثلاثة وستين بيتا، وهو في

1 ـ ينظر: محمد بن أب المزمري(1160هـ) حياته وآثاره، ص: 13.

2 ـ النبذة في تاريخ توات وأعلامها ...، ص: 42.

3 ـ إقليم توات بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين،ص:85.

4 ـ هو أمحمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر الأنصاري ، وُلد ما بين نهاية القرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر الهجريين، تعلّم في تلمسان فأخذ عن ابن بوكلخ، وفي المغرب، فأخذ عن علمائها أمثال عبد الواحد القدوسي بسجلماسة وعن أحمد بن ناصر الدرعي، ثم عاد إلى زاوية زاجلو ليقوم على التدريس فيها، في سنة 1174هـ كان حيا. وهو والد (ابن العالم) المترجم له.

تافيلالت بالمغرب الأقصى طالبا للعلم هناك بعد أن اشتاق إلى بلاده، فقال في مطلعها:

ولمّا تغربنا وقلّ مساعد ونفسي لشدة الفراق تراود
تذكرت إخوانا لنا ومعارفا وما قد مضى من عهدنا متباعد
ونحن بغرب حول شيخ المعارف وقد ضاق صدري طالما أنا جاحد

ويبدأ في ذكر أعلام الزاوية فيقول:

فأولُ أهلِ الخيرِ موسى وبعدهُ عليٌّ بحجِ البيتِ تَمَّتْ مقاصدِ
هما سيدانِ آخذانِ بسنّة فسل بهما تعطى فإنك واجد
وأما مَحمد أخو الصبرِ والرضا فما دأبُه إلا الثنا والمحامد

ويختمها بقوله:

وشَمِّرْ عن ساقِ الجدِّ واكتسبِ التُّقى وسلِّم ولا تَعْتبْ فإنك وارد
إلهي صل ثم سلم على النّبي وآله والصحب فإنك واحد[1]

وما ابن العالم إلا واحد منهم، فمن يكون هذا العالم الذي شغل الناس بعلمه؟

ثانيا: حياة ابن العالم ومصنفاته:

1 . اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله[2] مُحمد بن امحمد بن أحمد بن مُحمد بن أبي بكر الأنصاري نسبا، التواتي وطنا وبلدا، الزجلوي منشأ[3]، لقبه ابن العالم، يرتفع نسبه إلى الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، وُلد قبيل منتصف القرن الثاني عشر الهجري (12هـ)، في أسرة اشتهرت بالعلم والمعرفة؛ فوالده أمحمد الذي كان أحد أعلام المنطقة تعلّم بسجلماسة في المغرب الأقصى وتلمسان النحو وأصول الفقه، وكان مفتي الديار التواتية.

أ.عبد القادر بقادر
ابن العالم سيدي محمد الزجلوي
(حياته وإسهامه في الحركة العلمية بتوات)

كان مُحمد أحد أعلام الإقليم، يقول فيه صاحب الدرة الفاخرة عبد القادر بن عمر بن عبد الرحمن التينيلاني ت(1256هـ): "كان رحمة الله أحد الأعلام وأحد المجتهدين في عصره، وكان أهل عصره يبالغون عنه في الثناء."[4]

1 ـ القصيدة كاملة مخطوطة في خزانة أنزجمير.
2 ـ ذكره صاحب الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، عبد القادر التينيلاني، مخطوط في خزانة ابن الوليد ببا عبد الله، ص: 16.
3 ـ تسهيل الإرشاد للدرر المتعينة من الأصول والفروع على مذاهب عالم المدينة، محمد الزجلوي، مخطوط بخزانة عباني، ص: 1.
4 ـ الدرة الفاخرة، ص: 16، ولعله يقصد يبالغون في الثناء عليه.

2 . نشأته وطلبه للعلم:

نشأ محمد في قصر زاجلو حيث تلقى العلوم الأولى على يد والد الشيخ أمحمد أحميد فحفظ القرآن الكريم ثم حفظ المتون التي كانت مشتهرة في زمانه، منها مختصر خليل، فهو يقول عن قراءته لمختصر خليل على يد والده: "وابتداء قراءته (أي مختصر خليل) عند الوالد في ربيع الأول من عام ثمانية وخمسين (بعد ألف ومائة) 1158هـ إلى أن ختمته عليه ثم عاودته عليه..."[1] .

من خلال النص السابق يتبين لنا أن بداية تعلمه كانت على يد والده . كيف لا ووالده هو أحد العلماء المشهود لهم بالعلم . فقرأ عليه مختصر خليل أكثر من مرة، ثم انتقل إلى تينيلان . وهو في حداثة سنه . حيث يوجد عالم ذلك الزمان الشيخ عبد الرحمن بن عمر[2]، فأخذ عنه فنونا كثيرة.

تحلى ابن العالم بأخلاق حميدة وفضائل جمّة ناهيك عن العلم، قال فيه صاحب الدرة الفاخرة: "وكانت فيه من المحامد والمكارم ما يستغرق الوصف، وفضله أشهر من أن يوصف... ولولا خوف الإطالة لأوردت من خبره طرفا كبيرا."[3]، وقد حظي محمد بمكانة مرموقة عند شيخه عبد الرحمن بن عمر؛ الذي انتقل إلى مدرسته في سن مبكرة وأخذ عنه النحو والفقه والتفسير...

كان إماما فقيها لغويا أصوليا مجتهدا عارفا بعلوم القرآن والحديث النبوي الشريف واللغة العربية، يقول عنه أحد معاصريه: "إمام قطر توات وأحد المستقلين بها لمعرفة الفقه، والعربية واللغة، ورتبة الاجتهاد، وعلم الأصول، وشيء من المنطق والبيان، لم يكن في وقته في أقطار توات أقصاها وأدناها من يجاريه في علوم القرآن ضبطه ...وتفسيره وناسخه ومنسوخه ومجمله ومفصله وغريبه"[4]، وكان كذلك في الحديث النبوي الشريف، وكان شاعرا مجيدا عالما بعلمي العروض والقوافي، تصدر للتدريس فكان رائدا فيه بحسن

1 ـ الوجيز على مختصر خليل، محمد الزجلوي، مخطوط بخزانة كوسام، والشيخ باي بأولف، ص: 1.

2 ـ هو عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن معروف بن يوسف بن أحمد بن يوسف التينيلاني، أخذ عن شيوخ من توات وآخرين من أقطار أخرى كالمغرب وغيرها؛ فمن التواتيين عمر بن عبد القادر التينيلاني(1152هـ)، والشيخ محمد بن اب المزمري ت (1160هـ)، ومن المغاربة أحمد بن عبد العزيز بن إبراهيم الهلالي، كان أحد أعلام الإقليم وإليه تشد الرحال في طلب العلم له رحلات عديدة في طلب العلم، توفي سنة 1189هـ.

3 ـ الدرة الفاخرة،ص:16.

4 ـ وثيقة مخطوطة من ورقة واحدة كتبت في عصر المترجم له، خزانة صديقي بومدين تمنطيط.(لم يرد اسم كاتب الوثيقة إلا أنه قال بأنه ابن عم الصالح محمد بن الحاج المحجوب وهذا الأخير هو تلميذ ابن العالم).

الخلق وأنيس المجلس، وكثير الحكايات، ولين الجانب مع الطلبة، فتفاخر الطلبة بالأخذ عنه وانتفع منه كثير منهم. كان زاهدا في الدنيا عفيفا متقشفا موصوفا بالصلاح، منقطعا عن العوام تاركا لهم عارف بزمانه؛ فإنه إذا حضر أحدُ العوام مجلس درسه مع طلبته أخذته قشعريرة وتلون وجهه فلا يكاد يُفهم من كلامه شيء [1].

ولمّا تولى القاضي عبد الحق بن عبد الكريم بن البكري[2] ت(1210هـ) القضاء في توات اختار لمشورته أربعة من العلماء الأفاضل، قال عنهم صاحب جوهرة المعاني: "أربعة أشياخ لم تسمح الوقت بأفضل منهم في صناعة القضاء."[3]؛ والأربعة هم: عبد الرحمن بن عمر، عبد الكريم الحاجب[4]، ومحمد بن الحاج عبد الله التمنطيطي[5]، ومُحمد بن العالم الزجلوي.

1 ـ ينظر: نفسه. هذا ما نقله ناسخ الوثيقة عن تلميذ ابن العالم (الصالح محمد بن الحاج المحجوب)

2 ـ هو عبد الحق بن عبد الكريم بن البكري بن عبد الكريم بن أمحمد بن أبي أمحمد بن أحمد بن ميمون، تولى القضاء عام 1174هـ، بعد وفاة والده . (ينظر: جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني، محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي، مخطوط بخزانة المطارفة، ص: 21، والنبذة في تاريخ توات وأعلامها...، ص: 154.).

3 ـ جوهرة المعاني، ص:22.

4 ـ هو عبد الكريم بن محمد الصالح بن البكري بن عبد الكريم، وُلد في تنمطيط عام 1118هـ كان عالما وعاملا وفقيها وزاهدا أخذ عن جده، وعن والده علم النحو والفقه والتفسير واللغة العربية (جوهرة المعاني، ص: 21، والنبذة في تاريخ توات وأعلامها...، ص: 160.).

5 ـ لم أقف له على ترجمة.

ما كان لابن العالم أن يكون في مجلس قضاءٍ رئيسُه القاضي عبد الحق . الذي عُرف بشدته العمرية في العدل . لولا علمُه وزهدُه ونزاهتُه وخلقُه، وما كانت تسجل في سجلات القاضي عبد الحق عقودٌ أو غيرُها إلا بعد استشارة مستشاريه الأربعة[1]. وهكذا ارتقى ابن العالم إلى تلك المرتبة مع شيخه ومن هم أكبر منه سنا.

3 . شيوخه:

أخذ العلم عن عدد من الشيوخ كان أبرزهم:

أ- أمحمد الزجلوي المعروف بالعالم وهو والد المترجم له

ب- عبد الرحمن بن عمر (1189هـ)

ت- عمر بن عبد القادر التينيلاني[2] (1098 ـ 1152هـ)

ث- محمد بن عبد الرحمن البلبالي[3] (1155هـ ـ 1241هـ)

4 . تلاميذه:

تتلمذ على يد ابن العالم عدد كبير من التلاميذ الذين حملوا مشعل العلم بعده منهم:

- أبو العباس أحمد زروق[4].
- عبد الله بن عبد الرحمن التينيلاني[5].
- عبد الرحمن بن إدريس[6] (1181هـ ـ 1233هـ)
- عبد الله بن أبي مدين بن أبي بكر التمنطيطي[7] (1189هـ ـ 1231هـ)

---

1 ـ ينظر: نفسه، ص: 22.

2 ـ ولد بقصر تينيلان عام 1098هـ حفظ فيها القرآن الكريم وفيها كانت بدايته العلمية، ثم انتقل عام 1117هـ إلى مدينة فاس المغربية تلقى من شيوخها، ثم جلس للتدريس بجامع القرويين إلى سنة 1129هـ، ثم عاد إلى بلدته وجلس فيها للتدريس، ثم تولى القضاء عام1133هـ، ومال في آخر عمره إلى التصوف فاعتزل الناس، توفي 3 من ربيع الأول1152هـ. ربما ابن العالم لم يأخذ عن عمر بن عبد القادر مباشرة، وذلك يرجع إلى أن ابن العالم ولد قبل وفاة الشيخ عمر بن عبد القادر بحوالى خمس أو ست سنين، وهذا ما يرجح عندي عدم الأخذ عنه مباشرة، ولكن بعض من ترجم له يذكر أن عمر بن عبد القادر كان شيخا لابن العالم.

3 ـ هو أبو عبد الله محمد بن محمد عبد الرحمن بن الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحاج أمحمد بن أحمد بن أبي زيد البلبالي الأنصاري نسبا الملوكي دارا والتواتي موطنا ولد ليلة عرفة من عام 1155هـ، الموافق لـ 03 فبراير 1743م. المعروف بسيدي الحاج، كان عالما فقيها إماما، وأديبا شاعرا، وقاضيا، وطبيبا، تبادل الأخذ مع المترجم له فكان كل منهما شيخا للآخر وتلميذا له.

4 ـ هو أبو العباس أحمد زروق بن أبي عبد الله بن محمد بن موسى الجعفري، كان إماما عالما في الفقه وأديبا، له شعر جيد، كان صالحا، سافر إلى فاس وأخذ عن علمائها، تولى القضاء 1244هـ، وتوفى 1245هـ (الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، ص: 13).

5 ـ لم تذكر المصادر عنه شيئا إلا ما جاء في الدرة الفاخرة حيث أنه كان عالما بالحديث ومتقنا، لازم والده الشيخ عبد الرحمان بن عمر وقتا طويلا توفي عام 1221هـ (الدرة الفاخرة،ص:14).

6 ـ كان عالما ماهرا بالفقه والتفسير، له رحلات عديدة إلى الجزائر المحروسة، وإحدى رحلاته مدونة، كان شديد الحفظ سافر إلى فاس وأخذ عن ابن شقرون، وفته المنية أثناء عودته من الحج في شهر جمادى الثانية من عام 1233هـ (الدرة الفاخرة، ص: 14).

7 ـ أخذ علم التجويد عن والده ،كما كان أحد أقطاب عصره في العلم ومن أعيان العلماء(7)، حاور العديد من علماء عصره في مسائل كثيرة، كما انفرد في وقته بعلم الأصول، توفي عام 1231هـ (جوهرة المعاني، ص: 30).

- الحسن بن مُحمد الزجلوي[1]
- عبد الرحمن بن أمحمد الزجلوي[2]

5 ـ مصنفاته وآثاره:

خلّف ابن العالم بعد وفاته آثارا كثيرة مازالت حبيسة رفوف الخزائن في الإقليم:

أولا: <u>الكتب</u>:

1. تسهيل الإرشاد للدرر المتعينة من الأصول والفروع على مذاهب عالم المدينة(الكتاب من جزأين)[3]
2. الوجيز في شرح مختصر خليل[4]
3. شرح على منظومة التلمسانية[5]
4. نوازل الزجلوي[6]
5. السر المغتبط في وفق المخمس الخالي الوسط[7]
6. العقيدة السَّنِيَة في القواعد السُّنِّية[8]

1 ـ وهو ابن المترجم له، لم تذكر المصادر عنه شيئا إلا صاحب الدرة الفاخرة، إذ يقول: "كان رحمه الله إماما حافظا متقنا وانتهى إليه علو الإسناد بالديار التواتية، وكان يتحرز في الفتوى"(الدرة الفاخرة، ص: 16).

2 ـ وهو أخو المترجم له، لم تذكر المصادر عنه شيئا إلا صاحب الدرة الفاخرة، أخذ العلم عن والده، وعن أخيه(مُحمد)، وعن محمد بن عبد الله الونقالي، وكان من أبرز علماء العصر، وكان فظا ومعه صلابة في الحق (الدرة الفاخرة، ص: 16).

3 ـ مخطوط في خزانة الحاج سالم سالم بعباني بلدية فنوغيل.

4 ـ مخطوط في خزانة الشيخ باي بأولف.

5 ـ مخطوط في خزانة بلبالي بملوكة.

6 ـ مخطوط في خزنة ملوكة وغيرها من الخزائن عبر إقليم توات.

7 ـ مخطوط بخزانة انزجمير.

8 ـ مخطوط بخزانة انزجمير.

ثانيا: <u>المنظومات</u>:

اشتهر لابن العالم منظومتان هما: منظومة التفسير، ومنظومة الغريب، وقد عثرت له على منظومة ثالثة وهي منظومة الالتزام.

1. منظومة ألفية غريب القرآن[1]
2. منظومة ألفية التفسير[2]
3. منظومة الالتزام: يقول في مطلعها:

يقول راج رحمة ربه الغفار محمد بن العالم الأنصاري
المالكي الزجلوي الدار مبتدئا اسم الإله الستار
الحمد لله الذي قد ألـزم عباده الإخلاص فيما ألزما
وأوجب اتباع مصـطفاه والفوز بالوفا لمن قفاه[3]

ثالثا: <u>أشعاره</u>:

بالإضافة إلى المنظومات إن لابن العالم شعرا جيدا فهو أحد شعراء توات المجيدين، ومن قصائده الجيدة هذه المرثية التي رثى بها شيخَه أبا زيد عبد الرحمن بن عمر التينيلاني، فقال [من البحر الكامل]:

وإذا ذكرتَ من الحوادثِ جمّة فاذكر رزية لا رزية عوْضـها
واذكر أبا زيد وروعة فقده وتلهف الإسلام منه ورحضـها[4]
إن كان لا يبكيك حسن مثاله فازدب لقسوتك العيون وحُضَّها[5]
يا عين جودي بالدموع لفقد من لمصابه بكت السماء وأرضـها[6]

إن شعر محمد الزجلوي جاء مبثوثا في مؤلفاته العديدة؛ فهو لم يكتبه في ديوان شعري، ومن تلك الأشعار ما يأتي:

أرجوزة في موضوع الأحباس (الأوقاف) مطلعها:

مسألة لا خلف بين الناس في منع بت قسمة الأحباس

---

1 ـ المنظومة حققتها في رسالة الماجستير بجامعة ادرار سنة 2009م.

2 ـ وهي مفقودة إلى حد الساعة، وهي منظومة من ألف بيت وزيادة، وهي سابقة لألفية غريب القرآن، وقد أشار إليها بنفسه في منظومة الغريب القرآني، قائلا:

وأدوات النحو في التفسير أشبعت فيها القول في التقرير

3 ـ المنظومة مخطوطة بخزانة أنزجمير، ص: 1. وعندي نسخة منها.

4 ـ الرحض: الغسل، ويقال: رَحِضَ الرجل رحضا: عرق حتى كانه غُسِل جسدُه...والرحضاء العرق في أثر الحمى (لسان العرب، مادة (رحض)، 121/6.)، ولعل الشاعر يقصد أن المسلمين لمّا سمعوا بموت الفقيد أصابتهم الحمى فتصببوا عَرَقا.

5 ـ ازدب : احتمل، يقال ازدبيتُ الشيء إذ احتملته (الصحاح، مادة (زبى)، 2366/6.)، والحض: الحث في السير والسَوق، (لسان العرب، مادة (حضض)، 151/4.)، ولعل الشاعر هنا يقصد الحض على الدمع.

6 ـ الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، محمد باي بلعالم، دار هومة الجزائر، د ط، د ت، 407/1.

وأن ما جرى في الاغتلال على ثلاثة من الأقوال
والمنع والجوز والتفريق للنهى في الثمار عن التحقيق[1]

وفي نفس الموضوع يرد مجيبا على سؤال [من البحر الطويل]:

ثنائي على المولى أقدّم أولا وأزكى صلاة للنبي على الولا
رفعت سؤالا من نوازل عدة إلى عالم بالفقه ما كان أغفلا[2]

وفي ذات الموضوع له هذه القصيدة [من البحر الطويل]:

فسبحانك اللهم ما أنت أهله ثناء ولا أحصيه ما دمت موصلا
وأزكى الصلاة والسلام تحية على المجتبى المختار في الخلق اكملا
وبعدُ فالاستفتاء في العلم أسه فأكرم به من عالم قد تأهلا
فأما جواب الحبس فاعلم بأنه تناقض مبناه بما قد تفصلا[3]

وله بيتان في صفة البعث وما يتصل به...من البحر البسيط المقطوع:

بَعْثٌ وَحَشْرٌ قِيَامُ النَّاسِ عَرْضُهُمُ فَالصُّحْفُ قَبْلَ الحِسَّابِ ثُمَّ مِيْزَانُ
عَلَى الصِّرَاطِ فَحَوْضٌ بَعْدَهُ جَنَّة أَوْ هُوَ قَبْلَ الحِسَّابِ ثُمَّ نِيْرَانُ[4]

6 ـ تنويه العلماء بابن العالم ومصنفاته:

قال عنه أحد معاصريه: "إمام قطر توات وأحد المستقلين بها لمعرفة الفقه والعربية واللغة ورتبة الاجتهاد وعلم الأصول وشيء من المنطق والبيان..."[5]

لقد تلقى المجتمع التواتي مؤلفات ابن العالم بالقبول الحسن، وفي ما يأتي تنويه بعض علماء عصره:

قال سيدي عبد الحق بن عبد الكريم بن الشيخ البكري قصيدة من خمسة عشر بيتا وهي من البحر الكامل يقول في مطلعها:

يا من يريد من النقول أصحَّها خذ ما تراه بتسهيل الإرشاد
حاز النفيس والجواهر كلها طالع قدر ما قلت في الإنشاد[6]

1 ـ نقلا عن محاضرة لمحمد باي بلعالم في أشغال ملتقى (محمد الزجلوي)بزاوية كنتة سنة 2005م، نص المحاضرة تحت يدي، ص: 9.
2 ـ المرجع السابق، ص: 10.
3 ـ محاضرة محمد باي بلعالم، ص: 11.
4 ـ تسهيل الإرشاد، 40/1.
5 ـ وثيقة مخطوطة في عصر المترجم له، خزانة صديقي بومدين بتمنطيط.
6 ـ القصيدة كاملة في تسهيل الإرشاد،1/الصفحة الأخيرة.

وقال سيدي عبد الكريم بن بابا حيدا في ألفية غريب القرآن أبياتا من البحر الطويل، يقول في مطلعها:

فحمدا لمن بالفهم لازال منْعَما وبشرى لأهل العصر حيث تشعشعا
وكم ترك السُّباق لذي قريحة ردوا العلم بَحرا بل ألذَّ وأوسعا
إذا رمت ذوقا كالعسل حلاوة عليك بنظم كالجواهر رُصِّعا[1]

وقال سيدي عبد الرحمن بن عمر عن "ألفية غريب القرآن"، و"ألفية التفسير": "هذه ينتفع بها كل واحد من عوام الطلبة، وتلك مخصوصة بالفقهاء."[2]

أما من العلماء المحدثين الذين أثنوا على ألفية غريب القرآن خاصة أذكر منهم:

. العلامة الشيخ سيدي محمد بلكبير رحمه الله تعالى إذ كثيرا ما كان يوصي بها طلابه في العديد من المرات، وذلك لأنها كما يرى تجمع فنونا كثيرة زاخرة بالعلم زيادة على تضمنها لألفاظ القرآن الكريم.(3)

. الشيخ محمد باي بلعالم أنها: "هدية الشيخ ابن العالم لحفظة القرآن الكريم.(4)

. محمد عبد العزيز سيدي عمر: "هي للطلبة كالغذاء للأرواح والأبدان."(5)

. عبد الحميد بكري: "وهي من أهم الأعمال التي تميز بها رحمه الله تعالى وهي منظومة ضمها أهم الألفاظ الغريبة في القرآن."[6]

7 . وفاته:

توفي محمد الزجلوي (ابن العالم) يوم الثلاثاء 23 من شهر شوال سنة 1212هـ.(7) الموافق لـ: 09 أفريل 1798م، في بلدته بقصر زاجلو وبها دفن رحمه الله تعالى، مازال قبره معروفا إلى يوم الناس هذا.

الخاتمة:

1 ـ القصيدة كتبت في نهاية حاشية عبد الكريم الحاجب على ألفية غريب القرآن، ص: 25.

2 ـ الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التينيلاني، محمد باي بلعالم، دار هومة، الجزائر، د ط، د ت، ص: 28.

3 ـ في مقابلة شفهية مع الحاج محمد العلمي شيخ زاوية زاجلوا.

4 ـ الرحلة العلية...،1/268.

5 ـ كتاب قطف الزهرات من أخبار علماء توات، محمد عبد العزيز سيدي عمر، دار هومة، الجزائر، د ط، 2002م، ص:123.

6 ـ النبذة في تاريخ توات...،ص:93.

7 ـ كتاب قطف الزهرات...،ص:123.

1) ابن العالم شخصية جزائرية لها إسهاماتها في الحركة العلمية والثقافية بالجزائر؛ ولذا يجب الالتفات إلى تلك الإسهامات وتحقيقها وإفادة الناس بما فيها.

2) غير ابن العالم كثير في أرض الجزائر جنوبا وشمالا وغربا وشرقا، ممن طوى عنهم التاريخ صفحا، فإهمالهم والسكوت عنهم يعد عارا على المثقفين في الجزائر عامة، وفي مناطقهم خاصة.

3) أما آثار ابن العالم فهي شاهدة له على تلك الإسهامات التي كان لها دورها في تنوير وتعليم أبناء المنطقة آنذاك، كما هي شاهدة له على البراعة والمقدرة العلمية في شتى المجالات؛ كشرح "التلمسانية" في علم الفرائض، وكتابيه "الوجيز في مختصر خليل "و"تسهيل الإرشاد" في الفقه، أما ألفيتا غريب القرآن والتفسير فهما من الآثار التي تشهد له بالكفاءة العلمية، على الرغم من قلة الإمكانات والظروف الطبيعية الصعبة، والظرف التاريخي الصعب الذي وُجِد به، إلا أنه أثبت مقدرة فائقة في التحصيل العلمي والمعرفي في مجال التفسير واللغة، والعملان إسهامان خدم بهما القرآن الكريم، وهو بهذا يكون قد سد ثغرة في الدراسات القرآنية في المنطقة خاصة والجزائر عموما.

وفي الختام لا يسعنا إلا أن ننويه بهذا العالم وأمثاله في إقليم توات، وغيره من الأقاليم الجزائرية، كما ندعو الباحثين إلى لفت الانتباه إلى أمثاله من العلماء الذين ما زال رداء النسيان، وغبار الدهر يجللهم، ومصنفاتهم تئن تحت وطأة عوادي الدهر والأرضة.

قائمة المصادر والمراجع:

1) إقليم توات بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الملاديين، فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1977م.

2) تسهيل الإرشاد للدرر المتعينة من الأصول والفروع على مذاهب عالم المدينة، محمد الزجلوي، مخطوط بخزانة عباني.

3) الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، مولاي بالحميسي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 1979م.

4) جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني، محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي، مخطوط بخزانة المطارفة.

5) حاشية عبد الكريم الحاجب على ألفية غريب القرآن.
6) الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، عبد القادر التينيلاني، مخطوط في خزانة ابن الوليد ببا عبد الله.
7) الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، محمد باي بلعالم، دار هومة الجزائر، د ط، د ت.
8) الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التينيلاني، محمد باي بلعالم، دار هومة، الجزائر، د ط، د ت.
9) كتاب قطف الزهرات من أخبار علماء توات، محمد عبد العزيز سيدي عمر، دار هومة، الجزائر، د ط، 2002م.
10) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، ط: 4، 2004م.
11) محاضرة لمحمد باي بلعالم في أشغال ملتقى (محمد الزجلوي)بزاوية كنتة سنة 2005م
12) محمد بن أب المزمري 1160هـ حياته وآثاره، أحمد أبالصافي جعفري، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط: 1،1425هـ - 2004م.
13) النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9 إلى القرن 14 الهجري، عبد الحميد بكري، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، د ط، 2003م.
14) نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، مولاي أحمد الطاهري الإدريسي الحسيني، تح: مولاي عبد الله الطاهري، مخطوط.
15) الوجيز على مختصر خليل، محمد الزجلوي، مخطوط بخزانة كوسام، والشيخ باي بأولف.